المقـدّمـة

امتازت الفترة ما بين منتصف القرن الخامس الهجري وأواخر القرن السادس الهجري، بالتوسع في إقامة المؤسسات العلمية من مدارس ودور حديث واربـطة وخانقاوات وغيرها. حيث انتشرت في شتى بقاع الوطن الإسلامي الكبير.

واصبحت مرور ونيسابور وبخارى وسمرقند والقاهرة وبغداد ودمشق والموصل وحلب والاسكندرية والقدس ومكة والمدينة وقرطبة تعج بالاف المؤسسـات العلمية وباعداد غفيرة من العلماء. واصبحت مواكب العلماء تترى بين شرق الوطن الإسلامي وغربيه طلبا للعلم والتماسا للعلماء للأخذ والعطاء.

ومن حسن الحظ أن إقامة هذه المؤسسات العلمية لم تكن قاصرة على كبريات المدن الإسلامية، بل شملت معظم المدن الصغيرة وانتشرت في قلب التجمعات البشرية الممتدة عبر الوطن الإسلامي كله.

وانصب اهتمام هذه المؤسسات بالدرجة الأولى على العلوم الدينية من تفسـير وقراءات وفقه وحديث، وعلى العلوم اللغوية وغيرها. واصبحت بحق منائر هدي ومنابر علم ومشاعل هداية.

والملاحظ أن عملية انشاء المدارس والمؤسسات العلمية ازدادت منذ أن

قدم السلاجقة إلى بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري. ويعود اهتمام هؤلاء بالمدارس والعلم إلى عدة أسباب نجملها بما يلي:

أولاً: كان هدف السلاجقة المعلن لاقامة المدارس، محاربة الشيعة ودحض أفكارهم وبخاصة ان السلاجقة كانوا سُنَّة أحنافاً متعصبين لمذهبهم[1].

ثانياً: التقرب إلى الله ونيل رضاه واعتبار هذا العمل من أعمال الخير والبر، ينال صاحبه الثواب الأكيد.

ثالثا: ظهور شخصيات وزارية طموحة إلى تحقيق الأهداف المعلنة كنظام الملك الذي كان يتمتع بمكانة مرموقة في الدولة السلجوقية فقام بانشاء مجموعة من المدارس في شتى مدن المشرق الإسلامي، عرفت بالمدارس النظامية.

وعلى نهج السلاجقة ولنفس الأسباب تقريباً سار الأتابكة الزنكيون ومن بعدهم الايوبيون حتى شملت المدارس كل انحاء الوطن الإسلامي.

ويعود الفضل الأكبر في هذا الميدان بعد نظام الملك، الذي أقام النظاميات في كل من بغداد والموصل والبصرة ومرو وآمل ونيسابور وهراة واصبهان وبلخ وجزيرة ابن عمر، إلى نور الدين محمود زنكي. الذي آمن بان دولة يوجهها العلماء ستدوم ويكتب لها النجاح.

ومن هذا المنطلق اهتم نور الدين محمود بالعلم والعلماء وأقام المدارس في شتى بقاع دولته التي شملت الجزيرة وجزءاً كبيراً من الشام بالاضافة إلى مصر واليمن وجزء من شمال أفريقيا. ولم يقعده واجبه العسكري في مقارعة

---

(١) أحمد الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي. دار الفكر العربي القاهرة ط/٣ سنة ١٩٧٧م. ص ٦٠٨.

العدو الصليبي عن الاهتمام بالعلم وأهله، بل اهتم به لتصبح دولته دولة الحرب والعلم والأيمان معاً، متكاملة النواحي مترابطة الاطراف تسودها روح الأيمان والعلم.

ومن يتصفح سيرة محمود نور الدين زنكي يطلع على الكثير الكثير مما قدمه هذا القائد إلى العلم والعلماء. فقد بنى الربط والخانقاوات والمدارس وأوقف عليها الاوقاف الجليلة لتواصل مسيرتها الخيرَّة في ازالة الجهل والخرافات والأباطيل ونشر العلم والمعرفة والنور[1].

ومما يفسر لنا اهتمام محمود نور الدين زنكي بالعلم أنه نفسه كان عالماً كثير المطالعة للكتب الدينية يعقد المجالس العلمية ويوجّه الاسئلة للفقهاء مستفسراً عما أشكل عليه من امور ومسائل غامضة. وما هذا الا طبع العلماء الافذاذ ودلالة على الخلق العلمي الذي تمتع به نور الدين محمود زنكي[2].

وكان من عادته أنه اذا دخل عليه فقيه يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس له مما طمأن الفقهاء وجعلهم ينصرفون إلى العلم ويقبلون عليه بشغف ونهم[3].

ولم يقتصر نشاط نور الدين العلمي في اقامة المدارس على مدينة بعينها بل أقام المدارس في شتى بقاع الشام بصفة خاصة وفي سائر دولته بصفة عامة. فأقام المدارس في دمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها للشافعية والحنفية حتى قيل: ان بلاد الشام كانت قبل نور الدين خالية من المدارس.

---

(١) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية تحقيق محمود زايد بيروت. ص١٧/٣٧ (وتسمى سيرة محمود نور الدين زنكي).

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣١.

وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية[1].

ومن عادة نور الدين زنكي تقريب العلماء والاحسان اليهم وتقديم المساعدة لهم بشتى الطرق والسبل خاصة مشايخ الصوفية فاذا ما رأى أحدهم أدناه وباسطه الحديث وتواضع له. وكان نفس السلوك مع غيرهم من العلماء ورجال الدين بصفة خاصة. وكثيرا ما كان يجمعهم عند البحث والنظر.

ان مثل هذه السياسة الحكيمة من شأنها أن تستقطب العلماء ورجال الفكر وتقربهم من نور الدين خاصة وان الشام قد أصبحت قطب الرحى في العالم الإسلامي ومركزه الاقتصادي القوي لذا تكاثر العلماء القادمون إلى الشام وزاد عددهم بشكل ملحوظ. وباختصار أصبحت الشام انذاك تمثل المناخ الملائم للحركة العلمية الجادة. فقدم العلماء من خراسان وسائر المناطق الشرقية، ومن مصر وغيرها وكان مما شجعهم على الهجرة للشام بالاضافة إلى ما ذكرناه من سياسة نور الدين العلمية، ان نور الدين محمود كان لا يسمع طعنا ولا شكاية ضد عالم من احد مهما كانت منزلته في الدولة. وكان كثيرا ما يردد لمن ينقل إليه وشاية في عالم. ومن المعصوم؟ انما الكامل من تعد ذنوبه[2].

وكان نور الدين يحرص على ان يلتقي بالعلماء باستمرار وهذا يشحذ الهمم ويوقظ النفوس وينير العقول ويغرس الثقة في نفوس أهل العلم. ومن هذا القبيل الاجتماع الذي عقده نور الدين محمود عام ٥٥٤هـ للنظر في أمر الأوقاف الموظفة على الاماكن العمرانية في دمشق كالمساجد والربط

---

(١) ابن قاضي شهبة: سيرة نور الدين محمود ص ٣٥.

(٢) ابن قاضي شهبة: سيرة محمود نور الدين ص ٣٨.

والمدارس وغيرها. وكان ممن حضر الاجتماع زكي الدين أبوالحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء. الشيخ شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبوالبركات ابن عبد والامام عز الدين أبوالقاسم علي بن الحسن الشافعيون. وشرف الدين أبوالقاسم عبدالوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبدالوهاب الحنبلي ورضي الدين أبوغالب بن عبدالمنعم بن محمد بن اسد التميمي رئيس دمشق. ونظام الدين أبوالكرم ابن أبي المضاء متولي وزارة دمشق والأعيان من شهود العدالة وهم: عبدالصمد بن تميم وعبدالواحد ابن هلال والصائن أبوالحسن وغيرهم[1].

وهذا الاجتماع يبرهن بلا شك على ان نور الدين لم يكن يتعصب لمذهبه بل كان يهدف إلى ايجاد مجتمع مسلم يعتنق عقيدة التوحيد ويدين بالإسلام ليكون صلبا أمام العدو الصليبي. كما يبرهن هذا الاجتماع عن مدى تقبل نور الدين لاراء العلماء والقضاة وأهل العلم والمشورة.

وكان ما يهم نور الدين صدق العالم مع نفسه وعلمه فاذا ما شعر نور الدين بان عالما ما صادق مع نفسه وعلمه أدناه وقربه وأعطاه الإقطاعات وكرمه ومن هذا القبيل ما حصل مع عبدالله بن أبي عصرون امام الشافعية في عصره حيث احضره من سنجار وقربه إليه وأقام له جملة من المدارس في حلب ودمشق وحماة وحمص ومنبج وبعلبك عرفت باسم المدارس العصرونية. وأصبح ابن أبي عصرون علماً في دولة نور الدين في مجال العلم

---

(١) أبوشامة: الروضتين في اخبار الدولتين ١/٤١-٤٤ حيث النص الكامل للاجتماع وما دار فيه من مجادلات وما اسفر عنه من قرارات.
عماد الدين خليل: نور الدين محمود. دار القلم. دمشق بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠ ط/١ ص٨١-٨٢.

والفتيا والقضاء حتى ان نور الدين فوَّض إليه القضاء في جميع بلاد الشام[1].

ولعل اشهر رجال نور الدين الذين قدر لهم ان يرثوا عرش الزنكيين في بلاد الشام صلاح الدين الأيوبي الذي نشأ وترعرع في ظل البيت الزنكي، منذ ولادته عام ٥٣٢هـ في تكريت إلى أن أصبح يتمتع بمركز مرموق في دولة نور الدين محمود ثم ذهابه إلى مصر والقضاء على الدولة الفاطمية هناك عام ٥٦٧هـ.

وعلى الرغم من طغيان الجانب العسكري على اعمال صلاح الدين فإن الجانب العلمي لا يقل أهمية عنه في شيء. فقد اقام صلاح الدين جملة من المدارس وشجع العلماء ودفع بحركة العلم إلى الأمام.

ومن خلال استعراض الاحوال في الفترة ما بين منتصف القرن الخامس إلى نهاية القرن السادس نجد أن هذه الفترة قد شهدت تحدي الغزو الصليبي لمشاعر المسلمين في شمال الشام والعراق وكان على الكيانات السياسية في المنطقة أن تكون وحدة واحدة في مواجهة هذا الخطر دينيا واجتماعيا واقتصاديا وعلميا وقد تحقق شيء من هذا القبيل أيام نور الدين زنكي ومن بعده صلاح الدين الأيوبي. وفي هذا الجو عاش وترعرع شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون إمام الفقه الشافعي. ونال الحظوة لدى نور الدين وصلاح الدين من بعده. ولا شك أنه تأثر وأثَّر بما كان يدور حوله من احداث في المنطقة. واشتغل في القضاء والفتيا وكان نعم المشير على نور الدين بل ويحضر كل مجالسه العلمية وغيرها. وعلينا قبل كل شيء ذكر شيء من حياة شرف الدين هذا قبل الدخول بالبحث عما أنجزه في المجال العلمي والقضائي والاداري وعما خلفه من مؤسسات علمية لا تزال تحمل أسمه إلى

---

(١) عماد الدين خليل: نور الدين محمود ص ٨٢، ٨٤، ٨٥.

الآن وأقصد بها المدارس العصرونية في مدن بلاد الشام.

والخلاصة ان النهضة العلمية أيام نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي تعود في الدرجة الأولى إلى السياسة الرصينة التي اتبعها كل من الرجلين من احترام العلم والعلماء وتقريب العلماء وتقديم ما يلزمهم حتى ان نور الدين محمود اقام المدارس للمذاهب المختلفة دون تعصب ووفر كل الاجواء اللازمة لانطلاق الفكر في مساره الإسلامي القويم وتعامل مع العلماء بلا تمييز وصادق رجالا من السنة ومن الشيعة على السواء. وكل هذا في سبيل تمازج الفكر وظهور الابداع وفق المسار الإسلامي[1].

وتجدر الاشارة إلى أن رجال نور الدين وكبار قادته وامرائه قد ساروا على نهجه مما زاد في عدد المدارس وساهم في النهضة الفكرية الإسلامية. فهذا جمال الدين ريحان والي قلعة دمشق انشأ المدرسة الريحانية بدمشق عام ٥٦٥هـ ووظف عليها الأوقاف[2]. ومجاهد الدين بزان بن مامين انشأ مدرستين قبل سنة ٥٥٥هـ قبل وفاته[3]. وزوجة نور الدين عصمة خاتون بنت مدرسة لاصحاب أبي حنيفة بدمشق عرفت بالخاتونية[4] وغيرهم كثير. وعلى نفس النهج سار صلاح الدين ورجاله فيما بعد.

وبعد فقد قسمت هذا إلى البحث إلى مقدمة وسبعة فصول وخاتمة. تناولت في المقدمة الحالة العلمية في العالم الإسلامي في القرنين الخامس

---

(١) عماد الدين خليل: نور الدين محمود ص ١٦٥.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/٥٢٢-٥٢٣. ابن شداد: قسم دمشق ص ٢٠٩.

(٣) أبوشامة: الروضتين ١/٣٠٩. النعيمي: ١/٤٥٢.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٣٨٥. النعيمي: الدارس ١/٥٠٧.
ابن شداد: الاعلاق الخطيرة قسم دمشق ص ٢٠٥.

والسادس باختصار كي امهد للموضوع وقد أظهرت في المقدمة أن عملية انشاء المدارس تعود إلى القرن الثالث الهجري ولكن القرن الخامس شهد تقدماً ملحوظاً في هذا الميدان على يد السلاجقة حيث اقام نظام الملك الوزير السلجوقي نظامياته العشر في الجزء الشرقي من الوطن الإسلامي. ثم جاء بعد ذلك الزنكيون والأيوبيون فساروا على نفس النهج مما جعل القرن السادس الهجري قرن ازدهار العلم واقامة المدارس.

وتناولت في الفصل الأول حياة عبدالله بن أبي عصرون بالتفصيل لأطلع القارىء على المؤثرات العصرية انذاك في مسار حياته. وتناولت في الفصل الثاني دراسة شيوخ عبدالله بن أبي عصرون الذي اقيمت من أجله المدارس العصرونية كي يتبين القارىء أيضاً الأصول التي كونت حياة أبن أبي عصرون واثرت في شخصيته.

والفصل الثالث حمل دراسة لتلاميذ عبدالله بن أبي عصرون وذلك لابراز اثر شخصية عبدالله بن أبي عصرون فيمن احاط به. واما الفصل الرابع فحمل عنوان «مكانة عبدالله بن أبي عصرون العلمية والسياسية والقضائية». وهنا ابرزت الأثر العلمي والسياسي والقضائي لهذا الامام الجليل. وجاء الفصل الخامس يحمل عنوان «شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون في الميزان» وذلك لنضع هذه الشخصية في مكانها المناسب بين علماء العصر. وحمل الفصل السادس عنوان «أبناء شرف الدين بن عبدالله بن أبي عصرون» وذلك لاعطاء القارىء فكرة عن ابناء عبدالله بن أبي عصرون واظهار دورهم في الحياة سلبا وايجاباً.

والفصل السابع والأخير حمل عنوان «المدارس العصرونية» وقد حمل البحث كله هذا العنوان. وقد ابرزت دور هذه المدارس واسباب إقامتها وترجمت لعلمائها واظهرت مكان اقامتها وخلصت إلى انها أقيمت اكراماً

لعبدالله بن أبي عصرون في دمشق وحلب وحماة ومنبج وبعلبك وحمص والرحبة.

وجاءت الخاتمة تظهر اهم نتائج البحث التي توصلت إليها اثناء العمل ثم زودت البحث باحدى عشرة ضميمة تبين نواحي البحث التي تبدو بحاجة إلى توضيح أكثر للبعض. مما يعطي البحث وضوحاً لمن يطلبه.

obeikandl.com